

## الدعوة إلى التكافل والتكافل الإنساني



قال النبي ﷺ محمد (صلى الله عليه وآله وسلم): «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مِثْلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضُوٌّ تَدَاعَى لِهِ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالحُمْرِ». هنا يحثّنا رسولنا الكريم في الحديث الشريف فيبيّن: فكما الجسد الواحد في تعاضده وتكامله، كذلك المجتمع الصالح المتأزر في وحدة بنيه وتكاملهم وتعاونهم لما فيه خير المجتمع وصالحة العام. وغير خفي أنّ التكافل الإنساني هو مسؤولية مشتركة وخلاقة في جميع المجتمعات الإنسانية، حيث تدلّ آثار الحضارات القديمة منذ آلاف السنين على تجارب المجتمعات من حيث التكامل والتعاضد بين طبقات المجتمع وشرائحه.. وتبيّن لنا بقايا الفسيفساء والمنحوتات في العصور الغابرة من التاريخ، صوراً رائعة للمدن أو القرى القديمة في مواسم جمع الغلال أو الحصاد، وكذلك في مواسم العمran أو البناء.. حيث يلتقي أبناء المجتمع بشتّى أصنافهم وطبقاتهم وشرائحهم الاجتماعية في حلقاتٍ متصلة كخلايا النحل - بالرغم من النظام الطبيعي الحادّ الذي كان سائداً آنذاك - وذلك في سبيل تшибيد برج، أو بناء مدّ شبكات المياه بين المدن والقرى والأرياف.. وغيرها من الأعمال الجماعية التي تمثل نموذجاً رائعاً في التكامل الإنساني على طريق بناء الحضارة والعمل الجماعي المتأزر في سبيل المصلحة الإنسانية المشتركة.

ومع بزوع فجر الأديان والشريعة السمحاء، أكدّت جميع الرسالات السماوية ضرورة التكامل والتعاضد المجتمعي، لما فيه مصلحة البشرية جماء.. من هنا، التقت جميع الكُتُب والمناهج السماوية على ضرورة التواصل الإنساني عبر التكافل الاجتماعي، بما يؤدّي إلى ردم الهوة القائمة بين الأغنياء والفقراً، وكذلك إعالة المحتججين، وسدّ حاجتهم، بما يكفل لهم حياةً كريمةً وعزيزة، تسدّ عنهم ذلّ السؤال، وتكتفيهم وطأة الفاقة. وفي الإسلام الحنيف، كانت الدعوة إلى التكافل والتكافل من المبادئ الأساسية التي نادى بها الرّسول ﷺ، فكان الحرص على إيجاد التعاون بين أفراد المجتمع في كلّ أمرٍ فيه خير وصلاح للمجتمع ولبنيه، في مواجهة الظروف الصعبة، وتعقيداتها القاسية. ذلك لأنّ الخير وحده هو الذي يؤدّي إلى استقرار المجتمع وسلامة بناه، وبعده عن أيّ خلل اجتماعي يؤدّي إلى فرقة أبنائه، أو إلى شيوخ مشاعر الكراهية والحقن والحسد والبغضاء.

وقد جاء الأمر صريحاً عن التعاون الإيجابي، كما جاء النهي صريحاً عن التعاون السلبي، وذلك في قول الله عزّ وجلّ: (وَرَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالْتَّقْوَى وَلَا رَعَاوَنُواْ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدُودِ وَأَنَّ وَاتَّقُواْ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (المائدة/ 2). وفي الأحاديث الشريفة أحاديث كثيرة تحدث على التعاون المثمر المفید، الذي ينقد من شدة، ويفرج عن كربة، ويسعف من حاجة، ويغنى عن عوز. وقد بيّن النبيٌّ (صلى الله عليه وسلم) أنَّ إدخال السرور على قلب المسلم يعد من أحب الأعمال إلى الله عزّ وجلّ، بأن تكشف عنه غمّاً، وتغطّي عنه دينناً، أو تدفع عنه جوعاً.

كما يؤكد النبيٌّ (صلى الله عليه وسلم) إلى مسألة اجتماعية، وهي أن تشعر بأنَّ هناك فقراء لا يجدون من الغذاء ما تجده أنت، وهناك مساكين لا يملكون العيش الكريم: «وَتَصَدَّقُوا عَلَى فَقَرَائِكُمْ وَمَسَاكِينِكُمْ»، كلُّ بحسب قدرته، فإنَّ الصدقة تطفئ غضب الله، وتنمي الإنسان رزقه، وتشفي للإنسان مرضه. ويعالج النبيٌّ (صلى الله عليه وسلم) أيضاً مسألة اجتماعية في تعامل الأجيال بعضها مع بعض: «وَوَقَرُوا كَبَارَكُمْ، وَارْحَمُوا أَرْحَامَكُمْ، وَصَلُوا أَرْحَامَكُمْ»، فالنبيٌّ (صلى الله عليه وسلم) يريد للعوازل أن تتواءل وتترافق. أمّا الأيتام، فهم أمانة الله في كلِّ مجتمع، وعلى المجتمع أن يتوكّل بهم، ويتحذّن عليهم، وأن يحافظ على أموالهم، وأن يتحمّل مسؤوليّتهم في كلِّ ما يمكن الإنسان أن يقوم به من تربيتهم وتعليمهم: «وَتَحْذَنُوا عَلَى أَيْتَامِ النَّاسِ يُتَحْذَنُونَ عَلَى أَيْتَامِكُمْ». وقد أوصى الإمام عليٌّ (عليه السلام) بالأيتام بما يشبه الاستغاثة، فقال (عليه السلام): «إِنَّ فِي الْأَيْتَامِ، فَلَا تَغْبُّوا أَفْوَاهِهِمْ، وَلَا يَضِيعُوا بِحُضُورِكُمْ»، بل احفظوهم كما تحفظون أولادكم، واحمّوهم من الضّياع في متأهّل الحياة، حتى تنشئوهم ليكونوا مواطنين صالحين. وأخيراً، عن الصادق (عليه السلام): «الْمُسْلِمُ أَخْوَالُهُ، لَا يُظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَخْوُنُهُ، وَيَحقُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الاجْتِهَادُ فِي التَّوَافُلِ وَالْتَّعَاوُنِ عَلَى التَّعَاوُفِ وَالْمَوَاسِيَةِ لِأَهْلِ الْحَاجَةِ، وَتَعَاوُفُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، حَتَّى تَكُونُوا كَمَا أَمْرَكُمُ اللهُ تَعَالَى (رُحْمَاءُ بَأَيْنَهُمْ)، مُتَرَاحِمُينَ، مُغْفِلِيْنَ لِمَا غَابَ عَنْكُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ عَلَى مَا مَضَى عَلَيْهِ مِعْشَرُ الْأَنْصَارِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ».